أمس واليوم

قصة جديدة
بقلم
ميخائيل نعيمة

ليلٌ عابق بانفاس الربيع ، طافح بشعاع القمر ، مزمّل بجلابيب سكينة تتلاقى في غضونها كل أصناف القلوب ـ وقلوب العشاق على الأخص .

ولكن الفتى والفتاة الجالسين تحت عريش من الياسمين في حديقة الجامعة ، ما كانا يتطارحان الشوق والهيام . إنهما طالبان في السنة الرابعة من كلية الآداب ، والوجوم البادي على وجهيهما أبعد ما يكون عن وجوم عاشقين خانهما النطق او تنكر لهما الحب . لقد طال سكوتهما ، وما كان يجدي الفتاة أن تتنحنح من حين الى حين . فجليسها قد تسمّرت عيناه بالارض وتبكل فكّاه ، فما تتحرك له شفة . وأخيراً ضاق صدرها ، فأخذت الكتاب الملقي بجانبها على المقعد ، ووضعته في حضنها ، ثم ضربت عليه بكفها وقالت :

- واخيراً ؟ أما آن ان تنطق يا فؤاد ؟

فانتفض فؤاد كمن كان في سبات عميق ، وهزته بغتة من كتفه هزة عنيفة . ومن غير ان يرفع بصره عن الأرض أجاب بصوت متلجلج :

— بلى . بلى . عذرك يا ثريا لكأن لساني قطعة من الحديد في فمي .

— ولماذا ؟ أما جئت بي الى هنا لتفضي الي بأمر جلل ؟ فما هو ذلك الأمر ؟ أم لعله من الهول بحيث لا تستطيع ان تتحدث عنه ؟

— إنه لكذلك يا ثريا . ومن ثمّ فالخجل يعقل لساني .

— الخجل ؟ وممّن ؟

— منك يا ثريا ومن ... نفسي .

— مني ؟ ! لكأنك ما عرفتني قبل اليوم ، وكأننا ما لعبنا معاً صغيرَيْن في ساحات القرية ، ولا نحن ندرس اليوم دروساً واحدة في جامعة واحدة .

— ليتنا ما كبرنا . بل ليتني وحدي ما كبرت . بل ليتني ما ولدت .

— فؤاد ! ما هذا الذي تكلمني به ؟ وأمس كنت تبني القصور والعلالي وتفرش الدنيا رياحين . ماذا حلّ بك ما بين أمس واليوم ؟

— أمس كنت إنساناً .

— واليوم ؟ .

— واليوم ... اليوم أنا ...

وخيّل الى ثريا ان الفتى الجالس بجانبها قد غصّ بريقه — بل بدمعه . فانقبض قلبها عطفاً عليه . وشاءت ان تقول شيئاً يزيل غصته فما وجدت على الفور ما تقول . واكتفت بأن اخذت يده في يدها وشدّت عليها بكل قوتها . ومن بعد فترة من الصمت المرهق عادت فقالت :

— أتبكي يا فؤاد ؟

فاجابها والغصّة تخنقه :

— لا . وحريّ بي ان أبكي .

— ما عهدتك مائع العينين والقلب .

— ولا عهدتني ... لصّاً .

وقعت الكلمة الاخيرة على ثريا وقع الصاعقة . فما كادت تصدق أذنها . وكانت تجزم بأن جليسها يمزح لولا الاضطراب العميق البادي في ملامحه وفي صوته وفي كل حركة من حركاته . أيمكن ان يكون لصاً هذا الشاب الذي غالب اليتم والفقر منذ الصغر فشق طريقه من الدراسة الابتدائية الى الثانوية الى الجامعية بالصبر والحرمان والجهد المضنك وبارادة من فولاذ ؟ صحيح أن امّه ساعدته كثيراً بما كانت تنتجه من تعب يديها . إذ كانت تغسل وتخبز بالاجرة للاغنياء ، ولا تحجم عن القيام باي عمل ، مهما يكن خسيساً وشاقاً ، مادام يأتيها بالقرش تنفقه على تعليم وحيدها . ولكنها اصبحت طريحة الفراش منذ عامين . وفؤاد مضطر ان يعولها وأن يعول نفسه ويقوم بنفقات دراسته . وها هو قد بلغ سنته الاخيرة ، وبينه وبين الشهادة الجامعية شهر وبعض الشهر . وهو متفوق في جميع دروسه . والكل من اساتذته ورفاقه يتنبأ له بمستقبل باهر . فمواهبه لا شك في غزارتها ، واخلاقه مضرب المثل ، وعلى الأخص عزة نفسه . فما عُرف عنه يوماً ، رغم ضيق ذات يده ، انه اقترض فلساً من إنسان او طلب معونة ، مهما يكن نوعها ، من اي مخلوق .

لقد كانت ثريا ، وقد عرفته منذ حداثته وعرفت الكثير عن ظروفه القاسية ، اشد رفاقه اعجاباً بذكائه ، وسمو تفكيره ومناعة خُلقه ، ونقاوة رجولته . ولكم تحدثت اليه في شتى الامور . فكان يدهشها بقوة حجته ، وجميل بيانه ، وعمق تفكيره . وهي تذكر في ما تذكر قوله لها مرّة إنه يشكر

الله لانه ولد فقيراً لا غنياً . فالفقر ليس عاراً . وإنما العار في الذي والاستكانة للفقر . والفقر دون الذل والاستكانة أعظم مدرسة في الارض . اما الغني فشرّ ما فيه غطرسته وبهرجته . والغني المتغطرس يحفر قبره بظلفه . وذلك بما يثيره في المحرومين من حسد وحقد وضغينة لا تلبث ان تتفجر قلاقل وثورات وحروباً .

وازدحمت الذكريات والصور في ذهن ثريا . فما استطاعت ، كيفما قلّبتها ، ان تستنتج من اي منها ، او من مجموعها ، ان الشاب الجالس بجانبها يمكن ان يكون يوماً من الايام لصاً ، مهما قسَت عليه الظروف ، ومهما بلغت به الحاجة . ذلك هو المستحيل بعينه . وانتهت بان اطلقت قهقهة عالية وضربت جليسها على كتفه وقالت :

— السلام يا سيد اللصوص . بقي ان نعرف اذا كان ما اصطدته اليوم يؤهلك لهذا اللقب الرفيع . هات برهانك .

ولكنها ، ما إن فاهت بمداعبتها تلك حتى ندمت عليها وتمنّت لو تستطيع ان تستردّها . ففؤاد راح يرتجف كالورقة وينتفض انتفاضة العصفور الذبيح . وطالت رجفته وتسارعت انفاسه حتى خشيت عليه من عارض لا تحمد عقباه . فانعقد لسانها ، وتبلّلت عيناها ، وما بقيت تدري ماذا تقول او ماذا تفعل .

مرّت دقائق والفتى والفتاة في صمت رهيب ، والقمر يتحجب تارة بغمامة بيضاء وطوراً يسفر كأنه والارض يلهوان بلعبة كالتي يلعبها الصغار إذ يختبىء الواحد فيفتش عنه الآخر . واخيراً مدّ فؤاد يده الى جيبه واخرج منها شيئاً ثم طرحه بسرعة في حضن ثريا وكأنه يطرح عقرباً او ثعباناً . وقال :

— اليك البرهان .

وتناولت ثريا ذلك الشيء وتأملته في نور القمر ، فاذا بسوار من الذهب الخالص ، البديع الصنع ، وقد رُصّع بالياقوت والألماس . وظلت دقائق تتفحصه وتقلّبه ذات اليمين وذات اليسار ، فكأنها مبهورة بجماله ولمعانه . ولكنها ، في الواقع ، كانت تفعل ما تفعله وهي في شبه انخطاف . فلا فكرها ولا بصرها كانا مركّزين على السوار في يدها . واخيراً لبسته على معصمها وبرمته برمتين ثم التفتت إلى فؤاد وقالت :

- شيء بديع . وبديع جداً ، إن يكن هذا صيدك يا فؤاد وانت ما تزال في اسفل سلم اللصوصية ، فكيف بك اذا بلغت ٥٠ ؟ هات ، اخبرنا من اين وكيف ؟

ما كادت ثريا تلفظ الكلمة الاخيره حتى وثب فؤاد الى قدميه ، وانتصب امامها كالعمود ، ثم انحنى قليلا وراح يقذف الكلام من فمه كأنه هذيان المحموم ، ولكن بنبرات سريعة ، وبصوت خافت . فكأنه كان يخشى ان تسمعه حتى الياسمينة التي فوق رأسيهما :

— انا رجل هالك يا ثريا — هالك الى الابد . اتفلي في وجهي . العنيني . اصفعيني . اركليني . ولكن رجوتك ان تسمعيني . ولمن عساني اعترف إن لم يكن لك ؟ انت ما افسدك الغنى . ولقد اذلني الفقر . اذلني ساعة ظننتني اذللته . علي للجامعة رواتب استحق دفعها . وامي ، كما تعلمين ، طريحة الفراش منذ عامين . وانا لست املك ثمن الدواء لها . ولا اجرة الطبيب . ولا اجرة ممرضة . انا وحدي الدواء والطبيب والممرضة . لقد تقرحت المسكينة . وراح الدود يأكلها وهي حيّة . وبتّ اشعر ان الدود الذي يرعى في لحمها يرعى في لحمي كذلك .

طار عقلي . اظلمت الدنيا في عيني . قلت ادوس كبريائي وعزة نفسي في سبيل امي التي ما ضنّت بحياتها عليّ . فأقترض بعض المال . وقلت قريباً احصل على شهادتي وعلى عمل يساعدني على وفاء الدين . وقلت اذهب الى فريد صرصور . انه شاب طائش ، مبذّر ، ورث ثروة طائلة عن ابيه . وهو يعرفني واعرفه ، ولي عليه بعض الفضل . إذ كان كثير الرسوب في امتحاناته ايام دراسته . وكنت القنه دروساً خاصة . ولولاي

لما نال شهادته . فريد صرصور — ألا تعرفينه يا ثريا ؟

— أعرفه .

قالت ثريا ذلك وهي تحاول ان تخفي رجفة في صوتها وفي عضلاتها . ثم اردفت بسؤال :

— وكيف كان استقباله لك ؟

— وجدته يلعب « البوكر » مع زمرة من رفاقه . فما ترك اللعب ليقابلني . بل امرني بالانتظار — فرحت انتظر — وعندما توقفوا قليلاً عن اللعب ليشربوا الوسكي ويأكلوا بعض الحلويات رأيته يخرج هذا السوار من جيبه ويديره على الحضور ليتأملوا جماله . وسمعته يتبجّح بذوقه في انتقاء المجوهرات ، ويقول ان السوار هدية لخطيبته ، وقد دفع ثمنه خمساً وعشرين ليرة ذهبية ، وهو مزمع ان يفاجيء خطيبته به الليلة — اي الليلة البارحة — في الحفلة الراقصة في نادي «سميراميس» .

عندها قاطعت ثريا فؤاداً لتسأله في لجاجة :

— وماذا كان نصيبك منه في النهاية ؟ بماذا أجابك عندما طلبت منه المال ؟

— اجابني من بعد ان تنازل وسألني عن حاجتي ، ومن بعد ان وصفت له حالتي وحالة امي — اجابني بكل صفاقة : « واي بأس لو أكل الدود لحم امك وهي حية ؟ ألعلها اكثر من غسّالة ؟ » ولم يكتف بذلك حتى اضاف : « واي حاجة بابن غسالة الى شهادة جامعية ؟ اذهب واعمل عملاً تعيش منه . ولا تطمح الى العلوّ فوق أصلك . ذلك خير لك من الاستعطاء » .

— هكذا ، هكذا أجابك ؟ يا للوقاحة !

وانتفضت الفتاة وامتقع لونها وعضّت على شفتها السفلى وراحت تقلّب السوار في يدها على غير وعي منها . ولكن فؤاداً ما لاحظ شيئاً من ذلك ومضى في حديثه :

— خرجت من عنده وفي داخلي زلازل وبراكين . ولو كان في استطاعتي ان أنسف الأرض والسماء بكلمة او بنفخة لفعلت . وايّ خير لي فيهما وقد حبستا عني كل خير ؟ اي خير في حياة صراصيرها نسور ، ونسورها جعلان ؟ ولكن ، أتموت امي مفتحة العينين وفي عروقي دم ؟ لا . لن تموت . سآتيها بالطبيب . وآتيها بالدواء . وآتيها بالمال . لقد جازفتُ بعزّة نفسي فخسرتها . انحدرت الى الحضيض . فلأنحدر الى ما دون الحضيض . وهكذا صار فؤاد لصاً يا ثريا . وكان هذا السوار با كورة لصوصيته .

وتوقف فؤاد عن الكلام وهو يلهث إعياء . وما كان يجد الجرأة في نفسه ليمضي في الحديث ويخبر ثريا كيف تاثم وتزيّا بزيّ بدوي ، وكيف كمَن لفريد صرصور ليلاً وهو في طريقه الى النادي ، وكيف اوقف سيارته وشهر في وجهه مسدساً كالذي يلعب به الأولاد ، وكيف انتزع السوار من جيبه واطلق ساقيه للريح . وطال سكوته ، فشعرت ثريا بارتباكه ولم تشأ ان يمضي في اعترافه الى ابعد من ذلك فقالت برقة متناهية :

— يكفي . يكفي يا فؤاد . لقد فهمت كل شيء . ولا حاجة الى التفصيل . والآن ماذا انت فاعل بهذا السوار يا فؤاد ؟ أتريدني ان اشتريه منك ؟

— لا . لا . لا . اما كفى ان تلوثت انا حتى الوثك انت كذلك ؟ لا . لا . وألف لا . إني اقشعرّ من منظره . واقشعرّ من لمسه . واقشعر من ذكر كل حركة اتيتها في سبيل الحصول عليه . وجلّ ما ارجوه منك يا ثريا ، — إذا كان ذلك لا يزعجك — ان تردّي السوار لصاحبه ما دمت تعرفينه . ولك ان تخبريه بكل ما سمعته مني . لقد انزلق فؤاد من القمة إلى الهاوية . ولكنه لن يبقى في الهاوية . لتمت ام فؤاد . ليمت فؤاد . ولكن ليموتا شريفين . لا . لن يموت فؤاد لصاً . وقد لا يموت إلاّ ثائراً على كل ما في الأرض من نتن وظلم وفساد . بل لن يموت إلاّ ثائراً . لقد عاهدت نفسي على ذلك . والصراصير لن تملك الأرض إلى الأبد . إن لي ولامثالي نصيباً في سَمنها وشهدها . ولن نتخلى عنه للجشعاء والمتخمين .

— هوّن عليك يا فؤاد . ما من نزول الاّ بعده صعود . ودعني ابوح لك بسرٍ قد تتذهل له .

— هاتي يا ثريا . سرّك عندي سرّ .

— أتعرف لمن هذا السوار ؟

— لمن ؟

— لي . ولكنني ساعيده الليلة الى فؤاد صرصور .

— لك ؟! لك انتِ يا ثريا ؟ وكيف ذلك ؟

— انا خطيبة فؤاد صرصور .

— انت خطيبته ؟! واخجلي منك !

— الأصح انني كنت خطيبته الى ان سمعت منك ما سمعت .

— ثريا ، ثريا ! ليت الأرض تنشق وتبتلعني .

— بل ستبتلع الأرض الصراصير .

★

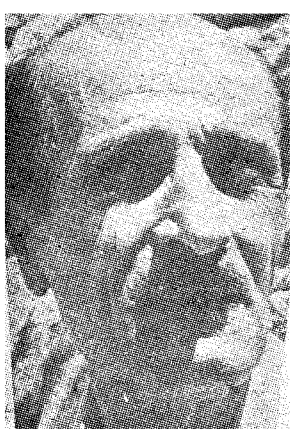

منذ ايام قرأت خبراً صغيراً في احدى الجرائد المحلية مفاده ان الشرطة ألقت القبض على فؤاد رمّاح وزوجته ثريّا لقيامهما بتوزيع نشرات سرّية من شأنها ان تخلّ بأمن الدولة ، وان هذين الزوجين يُعدّان في نظر المسؤولين من اشدّ العناصر « الهدامة » خطراً على البلاد ...

ميخائيل نعيمه